

ذكرى المولد النبوى

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين. وللعن الدائمة على أعدائهم أعداء الدين.

يَفْقَهُوا قَوْلِيٍّ. [طه: 25 – 28].

نبارك لكم أيها الإخوة المؤمنون هذه الجمعة المباركة، ذكرى ميلاد رسول الله (ص) وكذلك نبارك لكم ذكرى ميلاد الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) التي تصادف السابع عشر من شهر ربيع الأول.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِنَا أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. [الأنعام: ٢١].

هذه الآية الشريفة من سورة الأحزاب، تتحدث عن رسول الله ﷺ (ص) وبالتحديد عن جانب من جوانب شخصيته، وهو كونه أسوة وقدوة. فالنبي (ص) كله كمال، وهو منتهي الكمال البشري، فلهذا نزل القرآن يطلب منا أن نتأسى برسول الله ﷺ (ص).

والأسوة تعني الاتّباع والاقتداء، أي أنه تعالى طلب منا أن نقتدي بهذه الشخصية. وقد تكررت مفردة الأسوة في القرآن الكريم في موضوعين : الأول في خصوص نبى ﷺ إبراهيم (ع) والآخر برسول ﷺ (ص) في الآية السابقة التي تلونها. وقد جاءت في إبراهيم (ع) في شأن براءته من المشركين، فطلبت من الأتباع والمربيين أن يقتدوا بنبى ﷺ إبراهيم في البراءة من المشركين. وأما الثاني في رسول ﷺ (ص) فجاءت بخصوص ثباته ووقوفه في وجه الأعداء. أي أن الآية الشريفة أرادت الاقتداء برسول ﷺ في هذا الشأن على وجه الخصوص، أي الوقوف في وجه الأعداء والإصرار على هذا الشأن. صحيح أن النبي (ص) أسوة مطلقة، إلا أنها في هذا الموضوع أرادت هذا المعنى بالخصوص.

إن الأسوة من الأمور الملازمة للإنسان منذ وجوده، فهو مفظور على الأسوة، ومن الطبيعي للإنسان الذي يولد في هذه الدنيا أن يتأنى قبل كل شيء بأبويه، فإذا كان الأب والأم صالحين، فمن الطبيعي أن يكون قد تأسى بالصالح، غالباً ما يكون صالحًا، لأنه مقلد لحركات وسلوك والديه، صحيحاً كان أم سقيماً.

فالقدوة والأسوة لا تعني الصحة على الإطلاق، فهناك من يقتدي بالصحيح وهناك من يتأنى بالسقيم.

فأنت تلاحظ بعض الأطفال يكذب، فلربما كان سبب ذلك الأبوين، فهو يقلد أبوين كاذبين أو أحدهما. وهذه أسوة في الجانب السلبي، وهو منهيٌ عنه. وهناك أسوة في الجانب الإيجابي، وهو المطلوب.

لقد ولد رسول الله (ص) في فترة كان المجتمع المكي غارقاً في الضلالات والانحرافات والابتعاد عن القيم الإنسانية. في هذا الجو الصاخب المنحرف ولد رسول الله (ص). وعندما نلحظ هذه الحيثية، وهي ولادته ونشأته في جو منحرف متزدِّرٍ، ثم تحويله إلى مجتمع آخر، بتغييره جذرياً ندرك ما كان عليه من عظمة، وماذا عمل لكي يتمكن من إحداث هذا التغيير.

فهذا الانتشال من الظلمات إلى النور الذي تمكّن منه رسول الله (ص) وذلك التحول الذي حدث بجهده وجهاده، لم يكن ليحصل لولا عظمة رسول الله (ص).

ولد رسول الله (ص) في ذلك المجتمع يتيناً، إذ فَقَدَ أباه وهو في بطن أمه، وهذا بحد ذاته مؤشر على عظمته، فعادةً ما يُعاني اليتيم من شطف العيش ووطأة اليُتُم، فلا يستطيع التحرك في الوسط الاجتماعي، ويكون مشغولاً بنفسه.

فالنبي الأعظم (ص) جاء إلى الدنيا وهو يتيم، فاقد الأب، وذلك في السابع عشر من ربيع الأول من عام الفيل. وهو عام 570 للميلاد، في التاسع عشر من شهر مايس، في مكة المكرمة.

كان المجتمع المكي قد دأب على إرضاخ الأطفال عند أهل البدية، وتربيتهم هناك، لينشأوا على الفسحة والشجاعة، وكان أبناء القبائل المحبيطة بمكة، يقدمون إلى مكة، لكي يرضعون أبناء تلك القبائل مقابل أجور معينة. وكانت مكة منطقة تجارية كبيرة، فيها حراك تجاري وتبادل تجاري كبير.

في هذه الأجواء، كانت النساء تأتي إلى مكة للبحث عن أطفال للإرضاع، ومن هؤلاء النسوة حليمة السعيدة، التي كانت قليلة اللبن ولم يكن يرغب فيها أحد مرضعةً لولده، وكان رسول الله (ص) من نصيبها.

وعادت حليمة إلى أهلها تحمل رسول الله (ص) وما إن وصلت وأرضعته حتى أصبح لبنيها غريراً . وهذه أولى علامات البركة التي ظهرت على رسول الله (ص) . فتعجبت من ذلك، وأصرت أن تتمسك بهذا الوليد. وما هي إلا أيام قلائل حتى أصبحت المنطقة التي يقطن فيها أهل الحي خضراء ببركة رسول الله (ص) ، بعد أن كانت فاحلة مجده لا زرع ولا ماء .

بقي رسول الله هناك لمدة سنتين، وعند الفطام عادت به إلى مكة، وأصرت أن تتمسك به أياماً أخرى، فعادت به إلى الbadية من جديد، وبقي هناك حتى بلغ الخامسة من العمر، ثم أعادته إلى مكة.

وقد كانت هناك عنابة إلهية تحوطه، وإعداد إلهي، وقد وكل به – على بعض الروايات – ملك يرعاه. فعن الإمام علي (ع) في خطبته القاسعة : «ولقد قرن الله به (ص) من لدن أن كان فطيمًا»، أعظم ملائكة من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليه ونهاره». [نهج البلاغة: 300 صبحي الصالح]. فلماذا هذا الإعداد؟ لا شك أن ذلك لتهيئته لتحمل أعباء الرسالة وقيادة البشرية وإنقاذ هذه الأمة والعالم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ . [الأنباء: 107]. فإذا جاء يوم القيمة يفرّ الماء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، إلا رسول الله (ص) حيث يجلس على مرتفع فيقول مخاطباً الله تعالى: «يا رب، أمتني أمتي». [الكافي، الكليني: 312]. مما أعظمك يا رسول الله !

فالحري بنا أن نقتدي بهذه الشخصية العظيمة الكاملة التي بشر بها جميع الأنبياء منذ آدم حتى عيسى (ع).

لقد رکز رسول الله (ص) وأکد على الجانب الأخلاقي الذي يمثل روح الإسلام، وقد أودي في هذا السبيل كثيراً حتى قال : «ما أودينبي مثل ما أودي». [بحار الأنوار، المجلسي: 56]. والإنسان بلا أخلاق يكون خاويًا فارغاً مهما تبعه وسلك طريق الصلاح. وقد كان رسول الله (ص) على خلق عظيم، وكما يقول أمير المؤمنين (ع) : «يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم».

فمن أخلاقه العظيمة أن حاراً له يهودياً يؤذيه، فافتقده يوماً، فسأل عنه فقيل له : إنه مريض، فطلب إلى أصحابه أن يتوجهوا معه لزيارة ذلك الرجل اليهودي.

فمن أراد أن يقتدي برسول الله (ص) فلا بد أن تكون هذه المفاهيم والمعاني والقيم أما ماه يتحرك بها وينطلق بموجتها .

لقد كانت هناك رعاية خاصة من قبل الله تعالى وإعداداً خاصاً، ومن آثار ذلك الإعداد الإلهي أنه كان موحداً قبل أن ينشر الدعوة للتوحيد. وكان يمتنع من عبادة الأوثان ويرفضها علينا. وهذا كله من الرعاية الإلهية.

وكان يحج للبيت قبلبعثة، وكان يسمى عند أكل الطعام، ويحمد الله عندما ينتهي من الأكل، ويظهر ذلك أمام كفار قريش.

وهنالك الكثير مما يجدر بنا التحدث عنه، فحياة النبي (ص) مليئة بالدروس وال عبر، ومن الحري بكل منا إذا مرت ذكرى مولد النبي (ص) أن يطلع على مكارم أخلاقه ويقتدي ويتأسى به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.